

قصص الحيوان في أدب العراق القديم

د. جعفر صادق محمد

كلية الآداب والعلوم - جامعة بني وليد - ليبيا

Fables In Old Iraqi Literature

ABSTRACT

Fables are as old as man himself. He used them early as a means of expression when nature puzzled him beyond human perception. As a reaction to his perplexity, he proposed lots of interpretations that were mostly imaginary and sheerly illogical. Fables, therefore, came to represent such interpretations, means for understanding the world of nature and deciphering its elements. Ever since, Fables proved the most ancient modes of narrative literature in comparison to Myths and Epics.

Fables, which took for granted the animal character as a ruling persona, were the privilege of no individual nation. Nevertheless, some scholars attributed them to Indian and Greek civilization and sometimes to the ancient Egypt. Such a view is undoubtedly ignoring the ancient Iraqi civilization in this domain. Summerian, Babylonian, and Assyrian Ages passed down a great number of Fables that echoed loudly in the literatures of later world civilizations. This is quite noticeable in comparing old Iraqi Fables with their Greek equivalents. The Greek and non-Greek "Isup" is a good example for such a shared experience of the same artistic phase.

The present study is to shed light upon the art of Fable through its early appearance in "Guilgamesh" up to its maturity in "Ihegar Wisdom". The study also attempts to classify Fables and their moral, educational, and political functions.

ملخص

يرتبط ظهور الخرافة بالراحل الأولى من حياة الإنسان ، الذي اتخذ منها مظهرًا من مظاهر التعبير حينما كان ينفع بالطبيعة ويسعى الى فهم ظواهرها وفك أسرارها ، واستجابة لحيرته إزاء جبروتها الذي كان يدفعه الى وضع إجابات وتفسيرات تتسم بخيال جامح ومنطق خرافي ، ومن هنا كان نشوء الحكايات التفسيرية على لسان الحيوان استجابة لتلك الحالة ، مما أنتج لنا واحدا من أقدم أنماط السرد القصصي المعروفة قبل أن تنشأ الأسطورة واللحمة ، ويشكل الحيوان -عادة - الشخصية المهيمنة على نصوص القصص التفسيرية التي هي أقدم أنواع هذه القصص ، وهي قصص تشترك في إبتاحتها وروايتها أمم وشعوب الأرض قاطبة . وإذا كان بعض الباحثين وبدافع من ذرائع شتى قد مالوا الى الاعتقاد بأن جذور هذه القصص تعود في أغلب نماذجها المعروفة الى الحضارات الهندية والفرعونية واليونانية فهم بلا شك يتجاهلون هذا العدد الوفير من قصص الحيوان الذي خلفته لنا الحضارات العراقية القديمة بمختلف حقبتها من سومرية وبابلية وآشورية ، ليس هذا فحسب بل كان لهذه القصص حضورها الواسع في آداب الحضارات العالمية اللاحقة لها زمنيا ويدل على ذلك التشابه الواضح الذي يمكن رصده بين بعض قصص العراق القديم وبين القصص اليوناني المماثل كما هو الحال عند (ايسوب) اليوناني وغير اليوناني.

وهذه الدراسة محاولة لوضع هذا الفن الأدبي الراقي تحت عناية الباحثين ، من خلال رصد البدايات الأولى له كما وردت في ملحمة (جلجامش) وإلى أكثر نماذج نضجا ووعيا كما وردت في حكمة (أحيقار) كما يحاول أن يصنف أنواع تلك القصص وما نهضت به من وظائف أخلاقية وتربوية وسياسية في ضوء ما تيسر لنا من نصوص.

مقدمة:

قطعت القصة شوطا كبيرا في مسيرتها حتى استوت فنا ذا أسس ومعايير لاغنى للنص عنها ، وكانت خطوتها الأولى تتحدد في تلك الأخبار والحوادث التي كان الإنسان يسردها لأسرته وأبناء جلدته ، قاصا عليهم ما كان يعترضه في يومه من حوادث وصراع ضار مع الوحوش وقوى الطبيعة المختلفة، وما كانت تضعه أمامه من مشاكل وعقبات يضفي عليها ما يتهيأ له من أفكار وتصورات ((فيلقي عليهم قصته بطريقة مؤثرة تتدفق عاطفة وحيوية ، ويضفي عليها من خياله هالة من الجمال.))⁽¹⁾ ان طغيان الطبيعة الذي لا يجد تقابله قدرة محدودة ، ووعي شبه معدوم كان يتصف به الإنسان الأول عوامل دفعته الى أن يفسر الطبيعة ومظاهرها تفسيراً يتفق ومقدار تأثيرها عليه ، وبمقدار انفعاله بها، وهكذا نشأت الحكاية التفسيرية⁽²⁾، وهي أكثر ما تكون خيالاً لا ضابط له⁽³⁾.

وتعد قصة الحيوان من أقدم أنواع السرد ، فقد أدى الحيوان فيها تبعا لأهميته في حياة الإنسان الأولى دورا مهما في تفسير ما غمض عليه من ظواهر الكون وأسراره، والمجتمعات المتوحشة تستطيع أن تنشئ قصصا من هذا النوع كما تستطيع المجتمعات المعاصرة مع (اختلاف الدوافع) بل لعل هذه الجماعات المتوحشة تكون أكثر قدرة وأطول باعا في ذلك⁽⁴⁾.

ولقد أمضى الإنسان الأول زمنا طويلا من تاريخه باحثا عن نقطة التحول التي تنتشله من جهله وتخبطه وحالة الظلام التي استغرقت حياته ، وقد تحققت له هذه الخطوة عندما ((دخلت البشرية في أخطر تجربة وامتحان لازالت تعانيهما ، بانتقالها الى طور الحضارة والمدنية ، حيث نشأت العناصر الأساسية المميزة للحضارة ، وأنظمة الحكم ، والكتابة ، والتدين ، والشرائع المدونة ، والفنون ، والآداب))⁽⁵⁾.

وكان اختراع السومريين للكتابة من أهم الخطوات التي مهدت للإنسان أن يبني حضارته ، وأن ينتقل بالبشرية من ظلام أميتها الذي رافقها منذ بدء الخليقة وصولا الى

الألف الثالث قبل الميلاد عندما ظهرت الكتابة لأول مرة في شكلها البسيط على أرض سومر، تلك البداية التي تطلبت من الإنسان خمسة قرون أخرى⁽⁶⁾ من التجربة والتطوير كي تصبح أداة طيعة يستعين بها لتدوين شؤون حياته المختلفة، وصولاً إلى تمكنه من التعبير بوساطة اللغة عن مظاهر حياته بأساليب مختلفة ومنها الأسلوب الأدبي الذي اتخذ من الشعر والقصص والأساطير وسائل لعرض وجهات نظره واستيعاب انفعالاته وتفسيراته، تلك التي حفلت بها نصوص الأدب العراقي القديم بمختلف حقبة وأنواعه.

السمات العامة لقصص الحيوان في أدب العراق القديم :

تتصف الآداب القديمة على وجه العموم بوحدة الخصائص والسمات أو تقاربها على نحو أدق، وقد لاحظ المرحوم طه باقر (1983-) هذا التشابه الذي يشمل الأسلوب والمحتوى، وغير ذلك من عناصر البنية الفنية للنص الأدبي القديم، على أن أهم تلك السمات هي: طغيان التفكير الخرافي والمحتوى الأسطوري على هذا الأدب، ومحاولة الأديب القديم التعبير عن مظاهر الحياة ومشاكلها تعبيراً خرافياً، لذا عدت القصة على لسان الحيوان (باعتبارها ذات محتوى خرافي) فرعاً رئيساً من فروع هذا الأدب، يتصف بصفاته العامة ويجترح لنفسه خصائص وسمات تبقيه داخل الدائرة الإبداعية لهذا الأدب رغم خصوصيته. ومن أهم تلك السمات:

1 - القدم :

لقد دلت التنقيبات الأثرية التي جرت في الخرائب السومرية على ((أن أقدم النصوص السومرية يعود تدوينها إلى حدود الألف الثالث قبل (2400) ق.م، وهي أسطورة مدونة على أسطوانة من الطين مقسمة إلى عشرين عموداً، والأسطورة تتعلق بإله الجو والرياح (أنليل) وأخته (ننخرساك)). فإذا عرفنا أن هذا النص ينطوي على قدر كبير من النضج الفني، وأنه وغيره من النصوص المكتشفة في تلك الفترة تعد أشكالاً أدبية متطورة،

ومبنية على محاولات أدنى في سلم تطورها الفني ، أمكننا أن نرجع هذه النصوص قرونا أخرى تسبق عصر تدوينها الذي يعود في الغالب الى زمن لا يتجاوز الألف الثالث وأوائل الألف الثاني قبل الميلاد ((وقد تناقلتها الأجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية ، فوقع فيها الكثير من التطور الى أن بدا القوم يدونونها في ألواح من الطين بأشكالها النهائية الأخيرة التي جاءت فيها إلينا منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد))⁽⁸⁾ . وبمقارنة سريعة لهذا الأدب بأقرب الآداب العالمية القريبة منه، نجد أن التنقيبات والدراسات التي أجريت على أدب وادي النيل ترجع تاريخه الى الألف الثالث قبل الميلاد، كما أن أغلب النصوص الكنعانية المكتشفة في بلاد الشام تعود في أقدم نماذجها (التوراة) والإغريقية كالإلياذة والأوديسة الى الفترة المحصورة ما بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد .

وتدلنا النصوص السومرية التي سوف يبني عليها بحثنا هذا على أن بلاد الرافدين هي الموطن الأول للحكاية الخرافية التي يبلغ عمرها أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد⁽⁹⁾ ، وعندما تشير الدكتورة (سهير القلماوي) الى أن القصص الحيوانية في أقدم نماذجها يعود الى مصر و الهند و اليونان منوهة الى الصعوبة التي تجدها في ترجيح أيهم الأقدم، فلأنها كما يخيل إلي لم تطلع على النماذج المكتشفة من قصص الحيوان في خرائب سومر و أكد ، وهي نصوص سابقة في زمن كتابتها زمن أي أدب مشابه ((ان نشأة هذا النوع من القصص قد بدأ في أقدم حضارة عرفها التاريخ ، في بابل المتأثرة بسومر فأدب الحضارة الأقدم وهو الأقدم في أي مقياس منطقي، فأن الأساطير العراقية بشكل عام قد سجلت في العراق قبل أن تصل الحضارات الأخرى درجة النضج))⁽¹¹⁾ .

2 - الأصالة والثبات :

لقد سلم أدب العراق القديم من التغيير والتحريف كالذي واجهته آداب أمم أخرى وعصور أخرى ، مثل الأدب الجاهلي وهو الأقرب إلينا زمنا أو الآداب التي وصلت إلينا

مشافهة أو اعتمادا على الذاكرة الشعبية ، فالأدب العراقي القديم وصل إلينا مدونا على ألواح الطين ، ولقد حافظت أعماق الأرض التي طمرت تحتها هذه الألواح على ديمومتها ووضوحها حتى أظهرتها لنا أعمال الحفر والتنقيب في خرائب المدن القديمة التي تمت خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة، وفضلا عن هذا ((فقد حرص النساخ البابليون والآشوريون أنفسهم على أن تكون النسخ التي يكتبونها مطابقة كلية للنسخ القدية))⁽¹²⁾ ولعل من أوضح الدلائل على أصالة هذا الأدب وثباته ، أنه على الرغم من كونه أقدم أدب عرفته البشرية ، فإنه مازال يقرأ ويجتذب إليه أعدادا كبيرة من الباحثين والقراء لما فيه من عناصر التفرد والإبداع .

3 - الغزارة والتنوع :

لقد أسدت جهود الباحثين والأثريين في فك رموز الكتابة المسمارية خدمة عظيمة للإنسانية في التعرف الى فترة مهمة من فترات تطور البشرية ونموها الحضاري، ولقد أمكن العثور على آلاف الألواح الطينية التي ضمت نصوصا مختلفة تتعلق بشتى الأنشطة الحياتية التي كان يمارسها أبناء العراق القديم، والأدب في مقدمة تلك الأنشطة، ومن المؤكد أن ما تم الكشف عنه وقراءته من نصوص يمكن أن يقدم لنا صورة واضحة لذلك الأدب مما يمكن الباحث من إعطاء خلاصات ونتائج يمكن الاطمئنان إليها.

ورغم أن نسبة النصوص الأدبية تعد ضئيلة قياسا الى النصوص الأخرى، فقد خلف لنا الأدباء العراقيون القدامى نتاجا غزيرا يتسم بالأصالة والتنوع، فهم ((لم يتركوا ضربا من ضروب الأدب إلا وطرقوه ، فقد ألفوا في القصص والأساطير والملاحم، وكتبوا في الصلوات والأدعية والترانيم، وجمعوا الأمثال والحكم والنصائح ، ونظموا قصائد الغزل والمناجاة الى غير ذلك))⁽¹³⁾ ولعل أعمال الحفر والتنقيب ستكشف لنا مستقبلا المزيد من النصوص الأدبية، وفي هذا الصدد أمكن ضم النصوص المكتشفة من حكم (أحيقار) الى

نصوص أدب الحكمة القديم لتكون بذلك حلقة بالغة الأهمية بالنسبة للدارسين وهم يلقون بأصوائهم على طبيعة الأدب العراقي القديم ومنحى تطوره، فلقد جرى الاعتقاد زمنا طويلا بأن أحيقار هذا آرامي الأصل، لأن نصوص حكمته - وأغلبها جاء على شكل قصص على ألسنة الحيوانات - قد اكتشفت مدونة على أوراق البردي باللغة الآرامية ، والحقيقة التاريخية تؤكد أن أحيقار كان حكيما آشوريا ووزيرا لأثنين من أهم ملوك الآشوريين هما (سنحاريب) الذي حكم ما بين عامي 707 و 681 قبل الميلاد وابنه (اسرحدون) الذي حكم ما بين عامي 680 و 699 ، وانه كان يتمتع بنفوذ واسع في البلاط الآشوري⁽¹⁴⁾، وقد تضمنت حكمته نصوصا من الأدب القصصي وحكما وخرافات تجري على ألسنة الحيوانات والأشجار.

4 - التأثير في آداب الأمم الأخرى :

لم تكن حضارات العالم القديم ودوله مجرد كيانات منفصلة الواحدة عن الأخرى ، إذ لم يحل تباعد المسافات، ولا مشقة النقل دون أن تقيم تلك المدن صلات ووشائج تتعدى نطاق الغزو والحروب الى مجال التواصل المتبادل فيما بينها، وأن تؤثر الواحدة منها بالأخرى أو تتأثر بها، ومن الطبيعي أن يؤثر السابق في اللاحق من هذه الأمم، ويتأثر الجديد من التجارب بما هو أقدم منه ، وإذا كانت الحضارة السومرية هي اقدم الحضارات المكتشفة حتى الآن فمن الطبيعي أن يكون كل ما يشابه معطيات هذه الحضارة والحضارة الأكديّة التي تلتها وعاصرتها ربحا من الزمن ناقلا منها متأثرا بها، وعليه لن يكون عسيرا علينا تتبع حركة أدب العراق القديم وتغلغله في آداب العالم الأخرى، فلقد ترك هذا الأدب أثرا واضحا في آداب الأمم القديمة وانتشر في بيئاتها، وتزداد معرفتنا بعمق هذه التأثيرات وأهميتها بين فترة وأخرى بفعل التقدم المطرد في حقل الدراسات المسمارية الذي ساعد على تقديم تراجم ودراسات حديثة لكثير من

الأعمال، بعضها كان معروفاً من قبل وبعضها عرف بشكل جزئي بسبب تهشم رقم الطين⁽¹⁵⁾، وقد أمكن للباحثين رصد حركة هذه القصص وانتقالها بين الأمم المجاورة، وتقف في مقدمة هذه النصوص القصص المكتوبة على لسان الحيوان⁽¹⁶⁾.

5 - التعبير عن مظاهر الحياة :

من البدهي القول أن أدب أية أمة هو انعكاس صادق لحياتها وتعبير عن أفكارها وتطلعاتها، وقد أمكن الاستفادة من النصوص الأدبية في بلورة بعض الأفكار والمفاهيم الاجتماعية والسياسية لهذه الأمة أو تلك، ومن ثم إقرارها في ضوء استنتاج نصوصها الأدبية وتحليلها، ولقد كان الأدب في وادي الرافدين مرآة صادقة عكست طبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وأنماط التفكير الديني والخرافي والفلسفي؛ فالذي يدرس النتائج الأدبي للسومريين والبابليين يستطيع التعرف الى طبيعة تفكيرهم في الكون والآلهة، والى تفسيرهم للأحداث والظواهر الطبيعية⁽¹⁷⁾، وهو تفكير تحكمه الأسطورة لا المنطق فهم ((كانوا ينظرون الى علل الأشياء والحوادث من وجهة نظر من يحدثها وليس كيف تحدث ولماذا تحدث))⁽¹⁸⁾ وهذا السبب يكون في الغالب واحداً من الآلهة، وقد يتحد التفكير الديني بالأسطورة ليقدم لنا تعليلاً موحداً للظاهرة أو الحدث، فلقد كان الدين يشغل جل اهتمام العراقيين القدامى بصفته الدافع الموجه للكثير من أفكارهم والمولد لكثير من تصوراتهم ((فقد كانوا على قناعة تامة بأن الإنسان لم يكن سوى مخلوق من الطين خلق من أجل غرض واحد فقط هو خدمة الآلهة))⁽¹⁹⁾.

ولا تختلف قصص الحيوان عن غيرها من فروع الأدب في هذا الاتجاه، بل ظلت ممثلة لسمة الأدب وتوجهه نحو تصوير الحياة والتعبير عنها، فهذه القصص كانت في بداياتها نصوصاً تفسيرية شارحة تعكس نمطاً محدداً من أنماط التفكير الخرافي مثلما نجد ذلك في (ملحمة جلجامش) وفي القصة التفسيرية المتعلقة بصراخ (طائر الشقراق)،

كما نجد التعبير عن حالات التمايز الطبقي التي كان عليها المجتمع العراقي القديم في قصة (رسالة من قرد الى أمه) وغيرها من الأمثلة التي سنعرض إليها في المبحث الخاص بوظيفة هذه القصة.

6 - النمو والتطور :

من الطبيعي أن أدب العراق القديم لم يولد متكاملًا، بل كان تطورًا وامتدادًا لأدب الإنسان القديم في العصور التي سبقت قيام الحضارة السومرية، وهو أدب كان ولاشك أقل رقيًا ولكنه كان يسعى الى النمو والتكامل حتى إذا ما وصلنا الى أدب الحضارة السومرية وجدنا أنفسنا إزاء نصوص على قدر من القيمة الفنية والإبداعية، وتمتاز بالغنى والتنوع . وتشكل قصة الحيوان أحد فروع هذا الأدب المهمة ، وقد لحق بها ما لحق الأدب عامة من مظاهر التطور والتجديد ويبرز ذلك على نحو جلي في قصص (أحيقار) التي تلفت الانتباه إليها كونها ((حاوية على عناصر الموت والحياة والتكامل، وكتراث أنساني كتب لها الخلود رغمًا من تقادم عهدها))⁽²²⁾. ومن المؤكد أن (أحيقار) قد بنى أصول ثقافته وحكمته من جذوره الرافدينية الأولى، وأسبغ عليها من فكره الثاقب ونظراته المتأملّة ما كتب لها الذيوع والانتشار، وهو - بلا شك - قد استطاع أن يكثف من قصة الحيوان، ويجعلها قصيرة موجزة بألفاظها، ولكنها بعيدة في مراميها⁽²³⁾ ليضمن لها قدرًا أكبر من الإبلاغ والتأثير، ولعل في اختياره الحيوان شخصية رئيسة في التعبير عن مفردات حكمته ما يدل على تأثره بأدب الحكمة السومري.

الوظيفة:

لقد تعارف الباحثون على تصنيف ما ورثناه من نصوص قصصية مكتوبة على لسان الحيوان من التي تعود الى هذا العصر باعتبارها ضربا من ضروب أدب التسلية، ونمطا من أنماط الأدب الفكاهي الساخر ، وعندما لم يكن بإمكانهم تلمس الأثر الفكاهي المطلوب الذي يفترض أن تحدثه تلك النصوص في نفس القارئ قالوا: إن ((بعد الزمان هو الذي يحول بيننا وبين إدراك التعبيرات اللغوية التي تنطوي على الفكاهة والسخرية معا))⁽²⁴⁾، ولعل السبب في هذا التصنيف يعود الى أن هذا اللون من القصص يتخذ له أسلوبا خاصا يعتمد على توظيف الحيوان شخصية رئيسة أو وحيدة لأداء رسالته البلاغية الى جمهور القراء والمتلقين ، ولا نعتقد أنه من الصواب عده ضربا من ضروب التسلية والسخرية ، أو أن تعزى عدم مقدرته على الإضحاك الى تباين التعبيرات اللغوية بين لغتنا المعاصرة واللغة التي كتب بها ، بدليل أننا ورثنا نصا فكاهيا قادرا على إضحاكنا رغم لغته المسماوية التي وصل بها إلينا، ورغم البون الزمني الشاسع الذي يفصلنا عن زمن كتابته وهو قصة (الفقير من نفر) أو (جميل ننورتا)⁽²⁵⁾ كما يرد عنوانها في ترجمات أخرى ، ويعود تاريخ الرقيم الذي دونت عليه القصة الى سنة 701 قبل الميلاد ، ولا نعتقد أنه من الصواب - أيضا - أن نقسم قصة الحيوان تبعا لنمط الشخصية التي تجسدها أو الفعل الدرامي الذي تنجزه ، ذلك أن نصوص بعض قصص الحيوان يرتفع في أهميته وأهدافه الى مصاف أدب الحكمة الخالص على نحو ما وصل إلينا من حكمة (أحيقار) وفي النصائح والتوبيخات التي كان يزجها لأبن أخته (نادن) ، وهي في الغالب نصوص كتبت على لسان الحيوان ، كما أن الحيوان يدخل شخصية رئيسة في بعض القصص التي جرت مجرى الأمثال السائرة، أو ضمن الأمثال التي لم تقدم لنا قصة متكاملة ولكنها كانت تقدم لنا مغزى أخلاقيا مما ترجمه (لامبرت)⁽²⁶⁾ أو كتب عنه باستفاضة الدكتور (عبد الهادي الفوادي)⁽²⁷⁾، كما أن الحيوان كان موظفا في أدب المناظرات وهو فرع من

فروع أدب الحكمة في الأدبين البابلي والسومري يدخل فيه الحيوان رغم كون مادته ((تأليف متنوعة تهدف الى الحكمة والموعظة، وتتطرق أحيانا الى قضايا فكرية وفلسفية تتعلق بالإنسان وما تقدره له الآلهة من ثواب وعقاب ومن أسباب النجاح والفشل في الحياة))⁽²⁸⁾، وقد أمدتنا الألواح المسمارية بعدد جيد من هذه المناظرات⁽²⁹⁾ التي يسودها الجدل الذي غالبا ما يتحول الى معركة كلامية بين ((بطلين متخاصمين في القصة يشخصان عادة أزواجا متغايرة من الحيوانات والنباتات أو المعادن))⁽³⁰⁾ فلماذا تستبعد النصوص الأخرى على أنها لا تحمل رسالة فكرية أو اجتماعية وتصنف ضمن نمط جديد هو أدب السخرية والهزل؟ رغم أن تحليلنا لتلك النصوص الأخرى سوف يحيلنا الى مضامين فكرية وسياسية أو اجتماعية، مع قناعتنا بأن للسخرية نفسها رسالة أخلاقية قلما يخلو منها أي نص قصصي من قصص الحيوان التي ترمي في الأساس الى غرض أخلاقي.

وفي ضوء هذه الاعتبارات نجد أن ما وقع بين أيدينا من هذه القصص لا يمثل إلا جزءا يسيرا مما أورثنا إياه أباؤنا وحكامنا القدامى ، وأن الكثير منه قد تعرض للضياع ، وأن بعضه مازال محفوظا لم يلتفت إليه ، أو أنه لم يجمع في مكان واحد وإنما هو متناثر في كتب طبعت وأصبحت لندرتها مفقودة⁽³¹⁾، ولكن رغم هذا فإن ما وصلنا من نصوص مسمارية تمثل أدب العراق القديم في مختلف حقبة وحضاراته يمكن أن يمدنا بصورة جلية عن أهمية هذا الأدب، ودوره في الحياة العامة باعتباره معبرا عنها، مصورا لها، ناطقا بمشاعر انسانها مترجما لهمومه وآماله، وهي بالتالي يمكن أن تصنف تبعا لوظيفتها الى :

1 - القصة التفسيرية الشارحة :

على الرغم من كون القصة على لسان الحيوان موعلة في قدمها إلا أنها ((ارتبطت عند أغلب المجتمعات بالرغبة في تفسير الظواهر تفسيراً ملائماً لعقلية الناس في تلك العصور

الممعة قي القدم ، حيث جاءت بسيطة ساذجة غير خاضعة لمقاييس المنطق ، مما نستطيع أن نسميه تفسيراً أسطورياً يعبر عن عقائد تلك المجتمعات⁽³²⁾، ويؤكد (الكساندر هجرتي كراب) على قدرة المجتمعات المتوحشة أن تنشئ قصصاً من هذا النوع⁽³³⁾، ويفرق بين نوعين من هذه الأنواع ، فالغرض الأصلي لحكاية الحيوان هو: ((أن تشرح لنا حقيقة في الطبيعة يتعذر على الإنسان البدائي أن يفهمها ، وعلى ذلك يجوز لنا أن نقول أنها تخلو من القيم الأخلاقية))⁽³⁴⁾، لكن التطور الطبيعي الذي حصل للإنسان والنضج العقلي والحضاري الذي بلغه قد مكناه من أن يطور هذا النمط من أنماط القصة التفسيرية الشارحة بعدما حملها نوعاً من الرسالة الأخلاقية الوعظية التي تهدف الى التوجيه والإصلاح، ومن هنا نشأت الخرافة بمعناها الاصطلاحي للتعبير عن الخبرة الإنسانية، وبكونها خلاصة للتأمل الإنساني في الحياة الفردية والاجتماعية وفي كونها موجهة نحو الكمال الإنساني ومرشدة لطريق الفضيلة والخير والصلاح ، وعلى هذا تكون الخرافة ((في جوهرها حكاية حيوان ترمي الى إظهار غرض أخلاقي، أو قل إنها أشد وعظاً وتعليماً من حكايات الحيوان الشارحة))⁽³⁵⁾، وظلت هذه القصة تنحو الى التطور والتكامل حتى بلغت أوج نضجها في النماذج القصصية التي وصلتنا عن أحيقار و أيسوب و ابن المقفع و لافونتين وغيرهم حيث أصبحت هذه القصة تمارس دورها الأدبي والأخلاقي في كونها ((تشرح وتسلي وتعلم مازجة كل هذه الأغراض مزجاً بديعاً))⁽³⁶⁾.

ومنذ سيادة التفكير المنطقي الذي ارتبط بنضج الإنسان انحسرت الحكاية التفسيرية⁽³⁷⁾ في حين ازدهرت القصة المكتوبة لأهداف وعظية وأخلاقية.

وقصة الحيوان في أدب وادي الرافدين خير مثال لصداقية هذا الاستنتاج، ومع أنه لا يتوفر بين أيدينا عدد كبير من النصوص التفسيرية من نتاج تلك العصور السومرية والبابلية؛ لأنها بلا شك نصوص موهلة في القدم وتعود الى عصور ما قبل الطوفان⁽³⁸⁾ الذي اجتاحت ارض الرافدين وما خلفه من دمار وإبادة للأقوام والسلالات التي استوطنت

تلك الأنحاء، وما كانت تحمله في ذاكرتها من خرافات ومعتقدات، إلا أنه من المؤكد أن يكون ضمن ذلك الموروث عدد من الحكايات التي تشرح وتفسر لنا الكثير من الظواهر التي كانت تمر بالإنسان، وردود أفعاله وتصوراتها عنها، كما أن تحول الإنسان من حالة إلى أخرى كالتحول العظيم الذي شهده العراق القديم متمثلاً في الحضارة السومرية كان قد أنتج لنا نمطا آخر من أنماط القصص المكتوبة على لسان الحيوان ، يواكب هذه الحضارة وينطلق منها معبرا عن فكرها ومعطياتها، وقد أمدتنا الألواح الطينية بنصوص عدة منها الأمر الذي جعل الحكاية التفسيرية تنحسر أو تكاد، ويمكننا أن نعزو قلة هذا النمط من النصوص إلى الأسباب الآتية:

1 - ضياع أغلب هذه النصوص أو أن قسما منها مازال مطمورا تحت الأرض تحتويه

الألواح الطينية التي تزرع بها المواقع الأثرية العديدة.

2 - إن الاهتمام انصب بعد اختراع الكتابة على تدوين القصص ذات المغزى الأخلاقي،

في حين أن القصص التفسيرية ظلت تنتقل بين الأجيال شفاهاً ((وتمضي عهود طويلة في ظل الأمية ويضيع مع الأمية قدر كبير منها ، حتى إذا كانت كتابة، كانت الكتابة أعز من أن تنصرف إلى هذا التراث الشفهي وكان ما تحفظه منها قليلا يتميز منه بوجه خاص ما يتصل بالآلهة))⁽³⁹⁾. ولتأكيد هذه الحقيقة نذكر أن (ملحمة جلجامش) ذات الأصول السومرية التي دونت قبل أربعة آلاف عام ، وصلت إلينا منظومة شعرا باللغة البابلية، ومثل ذلك يمكن أن يقال عن أسطورة (ايتانا) و أسطورة (الطائر ذو) وغيرها، كما أن معرفة العالم الحديث بالحضارة السومرية حديثة أيضا ، لا تتعدى منتصف القرن التاسع عشر⁽⁴⁰⁾، وقد حملت (ملحمة جلجامش) إلينا أولى النصوص التفسيرية وأقدمها بالنسبة للتأريخ الأدبي، ففي هذه الملحمة يخاطب جلجامش الآلهة عشتار موبخا عندما عرضت عليه الزواج منه:

((تعالى أقص عليك مآسى عشاقك
من أجل تموز حبيب صغرك (صباك
قضيت بالبكاء والنواح عليه سنة بعد سنة
لقد رمت طير الشقراق المرقش
ولكنك ضربته وكسرت جناحيه
و هاهو الآن حاط في البساتين يصرخ نادبا
جناحي ... جناحي))⁽⁴¹⁾

إن خيال العراقي القديم دفعه لأن يوجد تشابها ما بين صوت الشقراق (كبي كبي) وصوت المفردة السومرية (جناحي) وبالتالي فإن مثل هذا التقارب الصوتي أغراه لأن يقارب بين دلالة الصوت (كبي) وشكل طيران الطائر الذي يبدو وكأنه مصاب بكسر في ساقه، وبالتالي إقحام عشتار في صياغة هذه القصة التفسيرية. إن ظاهرة طبيعية مثل هذه لابد أن تكون من صنع الآلهة، ويبدو أن لعنة عشتار هذه لم تطل طائر الشقراق وحده بل طالت عددا آخر من الحيوانات للسبب ذاته، فهذه الآلهة أحبت الأسد الكامل القوة، ولكنها حفرت للإيقاع به سبع وجرات، وأحبت الحصان ولكنها سلطت عليه السوط والمهماز يضرب بهما، وقضت عليه ألا يرد الماء إلا بعد تعكيره، وثمة عدد من النصوص المشابهة التي تنحو منحى أسطوريا في تفسير الظاهرة الطبيعية .

وينبغي التنبيه هنا الى حقيقة جوهرية، وهي أن أدباء العراق القديم ممن نظموا القصص والخرافات لم ينظروا الى نتائج هذا على أنه ((متعة أدبية وحسب، بل كانوا يعدون ما فيه من آراء حقائق معتبرة في تفسير الوجود والأشياء وعلى هذا ينبغي أن ننظر الى أساطيرهم على أنها تعبر عن حقائق الكون بحسب معتقداتهم بالإضافة الى كونها نتاجا أدبيا.))⁽⁴³⁾ وفي ضوء هذا التحديد يمكن لنا أن نفهم محتوى التعويذة السومرية (الدودة ووجع الأسنان التي تعلق ظاهرة تسوس الأسنان عند البشر)⁽⁴⁴⁾.

إن السومريين كانوا قد أنتجوا أدبا راقيا لم يكن للشعوب الأخرى حتى تلك التي تلتهم بقرون عديدة ما يماثله ، لذا فإن معرفتهم بالأنماط الأخرى الفطرية الساذجة من هذه القصة يكون عادة أقل نسبيا من بقية الأنماط الأخرى لهذه القصة ، مثلما سنرى في دراستنا للقصة ذات المحتوى الاجتماعي على سبيل المثال .

2 - القصة الأخلاقية والاجتماعية :

تضم مجموعة القيم الأخلاقية عدة تفرعات منها الأخلاق، الخير بمفهومه الأخلاقي و الأمانة و العدالة، أما مجموعة القيم الاجتماعية فهي تضم عددا من الأهداف والتوجهات مثل حب الناس و الكرم و قواعد السلوك الاجتماعي و التسامح التواضع، وهي أكثر المفردات شيوعا في قصص الحيوان، تدلل على ذلك كثرة النصوص القصصية التي وقعت بأيدينا مما اشتملت على هاتين القيمتين، ولقد استمدت قصص الحيوان عوامل وجودها وتطورها من المغزى الأخلاقي الذي بشرت به مما ارتقى بها من وظيفتها التفسيرية الى الهدف الأخلاقي.

ولقد ارتبطت القصة الأخلاقية هذه بتطور الإنسان العقلي ، وظهور المجتمعات الراقية التي تحكمها علاقات اقتصادية معقدة وصلات اجتماعية متشابكة أو نظم سياسية متباينة دفعت بالناس وبالأخص أولئك الذين أوتوا موهبة وذكاء خاصين الى التعبير عن آرائهم بصد ما تفرزه تلك الحياة من مشكلات بطريقة غير مباشرة؛ فكانت قصة الحيوان بما تقتضيه من كنايات ورموز وسيلة مثلى لذلك، فضلا عما يمتاز به التعبير الأدبي من قوة وحضور وفر لهم الإطار الذي يجعلهم بمنجاة من كل لوم وعقاب، فالقصة مثل سائر الصور المجازية تستمد من الأسباب التي تدفع بالناس الى التعبير عن أفكارهم بصورة محسوسة، فكان أن تطورت في مرحلة لاحقة لتصبح أداة تعليمية على أيدي الحكماء ورجال الدين، فأدخلوا عليها المغزى الأخلاقي واتخذوا منها أداة مناسبة لشرح الأفكار

والآراء⁽⁴⁵⁾.

إن تفحص النصوص التي وصلتنا من نتاج أدب العراق القديم يعطينا - بلا شك - صورة واضحة عن فاعلية تلك القصة في أداء دورها ، فضلا عن تعميقها لصورة الواقع الاجتماعي باعتبارها ناقلا أميناً لصورة الواقع الذي تمثله ، وهو في الحقيقة لا يختلف في جوهره عما يمكن أن نراه سائداً في بعض مجتمعاتنا المعاصرة ، ولعل هذا يبرر لنا طبيعة التشابه بين ما يكتب للأطفال وغيرهم من قصص على لسان الحيوان وبين موروثنا القديم من هذه القصص .

وفي مقدمة القصص التي مثلت طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة في العراق القديم قصة (رسالة من قرد الى أمه)⁽⁴⁶⁾ التي تقدم لنا صورة تنضح بالأسى لما كانت تعانيه طبقات المجتمع الدنيا من ظلم واضطهاد أكثر الأدباء من التعبير عنها وتصويرها، وفي قصة (الحمار المربوط الى جحش)⁽⁴⁷⁾ يقول الحمار (أنا حمار للركوب ومع ذلك فاني مربوط الى جحش إنني أجزع وأعاني من عصا الضرب). وواضح أن كلمات النص هي تعبير مجازي يصور حالة العامل الكادح الذي يعاني الذل والاستهانة معبرا عنها بالحمار الذي يعاني الضرب ويكلف بأعمال جر العربة رغم أنه مخصص لركوب البشر بمعنى أنه أرفع منزلة من الحمير المخصصة لجر العربات، ولكننا رغم ذلك نراه مربوطا الى جحش تعبيرا عن الاختلال في منزلتيهما، وتلك حال فئات عديدة من الشعب آنذاك كانت تلوذ بالأمنيات سبيلا للتخفيف من محنتها كما يفعل الحصان في النص التالي:

((أسر الحصان في أذن الأتان وهو يسفدها

- عساك أن تلدي مهرا عداً مثلي فلا تجعله

كالحمار ينوء بحمل الأثقال مثلي))⁽⁴⁸⁾

ولقد ظل الحمار عند الأقدمين رمزا للشقاء والمعاناة يلجأ إليه القاص ليسقط عليه همه الاجتماعي، وعذابه الإنساني، وفي النص التالي الذي يرمز بالمعاناة والأسى تصوير لتلك

الحالة، حالة الضعيف البائس المستهدف من الفئات والطبقات ذات القوة والنفوذ، وما يقابل به من جحود ونكران ذات:

(عندما كان الحمار يسبح في النهر صعد الكلب

على ظهره ، وتمسك به بقوة قائلًا مع نفسه

- متى يخرج حتى يؤكل؟)⁽⁴⁹⁾

وهو المضمون نفسه الذي يرد في نص لـ (أحيقار) :

(وكنت لي يا بني كالكب الذي دخل فرن الخزاف

ليتدفأ ، وبعد أن دفيء نهض لينبح على الخزافين)⁽⁵⁰⁾

ومن المضامين التي حفلت بها قصص الحيوان في أدب العراق القديم، الحث على

التواضع والابتعاد عن الغرور، وكذلك السخرية من الأدعياء والمغرورين وكل أولئك الذين

ينطلقون من واقع أجوف مغاير تماما لما يدعون، ومن أجمل النصوص التي وردت في

الأدب السومري، ووجدت لها أصداء ومثيلات في الآداب العالمية قصة (البعوضة

والفيل):

((وقفت مرة بعوضة فوق ظهر فيل وهو يمشي ، فقالت له :

- هل أثقلت عليك يا أخي ؟ فإن كنت قد فعلت ذلك

فإنني سأنزل عند بلوغنا مورد الماء .

فأجابها الفيل :- من أنت ؟ لم أحس أنك كنت موجودة

فوق ظهري ولن أعرف عندما ستنزلين)⁽⁵¹⁾

ان محاولة البعوضة تذكير الفيل بوجودها إنما هو تذكير بوجود هامشي يقترب من

حدود الوهم، وهو بالتالي نتاج لذلك الإدعاء الذي لا يستند الى حقيقة فعلية أو واقع

ملموس .

ويقدم لنا النص التالي مفارقة مقصودة للنيل من أولئك المتبجحين الأدعياء الذين لا

عمل لهم سوى السحرية من الآخرين ومحاولة الانتقاص منهم متناسين ما هم فيه من واقع سيئ مشابه :

((طارد الكلب مرة نمسا فهرب منه ودخل في بربخ (أنبوب تصريف المياه)

فلحقه الكلب ودخل خلفه في الفوهة فانحبس الكلب فيها وأفلت النمسا منه))⁽⁵³⁾

وثمة نص آخر يجري في الاتجاه نفسه :

((طارد النمسا مرة فأراد أن يختفي منه فدخل غار حية، ولما ألقى نفسه إزاء الخطر

الجديد، أرتج عليه فقال للحية: - أرسلني إليك الحاوي مع التحيات))⁽⁵⁴⁾

فالكلب في النص الأول والنمسا في النص الثاني يوضحان لنا حال الأحمق الذي لا

يقدر تبعة عمله في حين يمثل لنا النمسا في النص الأول الحالة المعاكسة فهو حينما دفع

الكلب لن يدخل خلفه في البربخ فقد كان يقدر تماما انه سوف يحشر في داخله، ولن يكون

بإمكانه الخروج من مأزقه الأول (مطاردة الفأر له) ليقع في المأزق الثاني الذي هو أدهى

منه، وهو في تبريره لوجوده في جحر الأفعى لا يجد ما يقوله غير: أرسلني إليك الحاوي

مع التحيات!

ومن المؤكد أن الأفعى قد سرت لوجوده ولسان حالها يقول: أنتك بحائن رجلاه .

ومن المضامين التي حفلت بها قصص الحيوان في هذا العصر قضية الطبع والتطبع،

وتحفل حكمة (أحيقار) بلوعة ومرارة بالفتن، وتكاد تكون نصوص حكمته مكرسة لإدانة

صفة الغدر والسلوك القائم على المخادعة والزيغ، ذلك الطبع الذي إذا ما استحکم

بالإنسان صار من العسير عليه التخلي عنه ، وحكمة أحيقار حالة إنسانية مستمدة من

موقف شخصي تعرض له (أحيقار) نفسه نتيجة وشاية كاذبة من لدن ابن أخته وربيبه

(نادن) الذي رباه وعلمه ليكون بديلا عنه في بلاط الملك الآشوري (اسرحدون)، لكن نادن

دس على خاله وشاية كاذبة فصدقها الملك وسلم أحيقار الى أحد ضباطه ليقتله، وكان

أحيقار قد أنقذ حياة هذا الضابط من الموت ذات مرة ، وردا لجميله هذا يخفي الضابط

أحيقار في بيته زمنا، وعندما يتبين للملك اسرحدون براءة أحيقار يندم على قتله، عندها يخبر الضابط الملك بأن أحيقار حي وأنه أخفاه عنده فيعيده الملك الى بيته ومنصبه. وقد وضع أحيقار حكاياته التي وجدت لها فيما بعد أصداء في حكايات الأمم المجاورة ، وجعل منها وسيلة للوعظ والتربية الأخلاقية ، فهي في مجملها نصائح وحكم في كيفية التصرف السليم والسلوك الصحيح وحسن التعامل مع الآخرين فهو حين ينصح نادن بعدم الاستدانة يقول له :

((الأسد ذهب فقدم التحية للحمار ، فقال :

- السلام عليك .

أجاب الحمار وقال للأسد :

- رفعت الرمل وحملت الملح فلم أجد أثقل من الدين))⁽⁵⁵⁾

ومع ما توحى به هذه القصة من عدم وجود ترابط ما بين السؤال وجوابه إلا أن واقع الحال يوحي بأن أحيقار كان يتجنب الوعظ المباشر ويلجأ الى أسلوب القص في التربية.

• وفي نص جميل آخر يشير أحيقار الى المضمون نفسه :

(قيل للذئب لم تسير وراء الغنم ؟

قال : ان غبارها مفيد ودواء لعيني ،

وأدخلوه (الذئب) المدرسة فقال له المعلم :

- ألف ..باء

فقال الذئب : - الجدي ... الحمل)⁽⁵⁶⁾

ويمكن لنا أن نجد هذا المضمون في قصص أخرى مثل (الذئب والحملان)⁽⁵⁷⁾ و (النمر والعنزة المغرورة)⁽⁵⁸⁾ و (الهرة التي قيل لها اتركي سرقاتك)⁽⁵⁹⁾ و (الفخ والعصفور)⁽⁶⁰⁾. ويلجأ أحيقار الى التوبيخ في خطابه لـ (نادن) بعدما كشف دسيسته؛ وفي حكمته عدد كبير من الحكايات التوبيخية التي تكاد تتخذ مبنى حكاثيا واحدا، ذلك أن كل حكاية تبدأ

بجملة (كنت لي يا بني ...) يتبعها سرد موجز لقصة على لسان أحد الحيوانات يوضح فيها حالة من حالات الغدر ونكران الجميل التي يدين فيها نادن ، ومنها :

(كنت لي يا بني ... كالحية التي ركبت عوسجا وطرحت في النهر
فراها الذئب وقال لها :

- شر راكب وشر من كليكما يقودكما ⁽⁶¹⁾))

ويمكن تلمس المرارة واللوعة التي وسمت حكمة أحيقار في نصوص أخرى مثل (فراخ السنونو)⁽⁶²⁾ و (العنزة وشجرة السماق)⁽⁶³⁾. ومن الراجح أن أحيقار كان شديد التأثير بالمرورث السومري والبابلي من قصص الحيوان وأدب الحكمة الذي يعود لتلك الحضارتين والذي عثر على الكثير من نصوصها مترجما الى اللغة الآشورية ((وأن شخصية أحيقار متأثرة بأبطال الحكمة في العهدين السومري والأكدي))⁽⁶⁴⁾.

ومثلما يتبين لنا من الأمثلة والنصوص التي عرضنا أليها، فإن الهم الاجتماعي والأخلاقي كان طاغيا على ما انتج من أدب، ويمكن أن يستشف ذلك أيضا من نصوص الأدب العام فضلا عن نصوص قصص الحيوان التي اعتبرت وسيلة من وسائل النقد والتربية والإصلاح مما يمكن أن يمد الباحث والقارئ بفكرة تتسم بشيء من الصدقية والوضوح عن طبيعة ذلك المجتمع وتشكيلاته ، ونمط العلاقات التي كانت تحكم علاقات أبنائه .

3 - القصص الدينية والسياسية :

إن طبيعة الواقع السياسي والاجتماعي ومقدار العنت الذي كانت تلاقيه فئة مغلوقة على أمرها أسباب من شأنها أن تولد ردود أفعال متباينة في حداثها وتمظهرها إزاء السلطات التي تمارس عملية الاضطهاد والاستغلال، وقد تتراوح ردود الأفعال هذه بين الطرفة و القصة بصفتها خطابا مستترا للتعبير عن مكنونات النفس حين يحول الخوف

والكبت والتسلط بينها وبين ما تريد التعبير عنه صراحة، وقد تكون ردود الأفعال بصيغة انتقاد مباشر أو تمرد وثورة أو عصيان يفضيان الى العنف والصدام في أغلب الأحوال. وتدلنا المصادر المسمارية القديمة على أن السلطات السياسية متمثلة في الملوك والحكام قد كانت سلطات مطلقة، وكانت تستمد شرعيتها من مبدأ (الاختيار) فقد افتخر بعض ملوك سومر ((باختيار الآلهة لهم من بين رجال مدينتهم فـ (انتميناً) و(أوروكاجينا) و(جودية) أخبرونا بأن يد الآلهة قد اختارتهم من بين أعداد غفيرة من رجال لكش))⁽⁶⁵⁾، وهنا سيضيف الملك الى شرعيته السياسية شرعية أخرى أكثر تأثيراً على الشعب هي الشرعية الدينية⁽⁶⁶⁾ فتمتزج الاثنتان، الأمر الذي يمنح الملك سلطات مطلقة، وإذا لم يكن من بين ملوك العراق القديم من ادعى الألوهية كما فعل بعض فراعنة مصر، فإن بعض ملوك وادي الرافدين قد ادعى انه من أبناء الآلهة كما فعل (أشور بنيبال) حينما ادعى في مناسبات عديدة بأن أمه هي الآلهة (أنليل) وهناك بعض الملوك من ذوي الأصل الوضعي ممن أتيحت لهم فرصة تسلم السلطة كانوا يدعون انتماءهم الى الآلهة لكي تتم لهم السيطرة المطلقة ولكي يكتسب ملكهم شرعية شعبية ودينية مثلما فعل (سرجون الأكدي) الذي ينحدر من أب غير معروف، وانه نشأ بستانيا لكنه ادعى بأن (عشتار) قد ربه ووعده بالملك الذي منحه اياه في النهاية، ورغم أن نظام الحكم في بلاد وادي الرافدين كان ملكياً وراثياً، وظل النظام المعمول به في العراق منذ أواخر فجر عصر السلالات فصاعداً، فإن الدين كان يضيف عليه عامل قوة مضاعفا الأمر الذي رسخ في أذهان العراقيين القدماء ان النظام الملكي هو نظام الهي مقدس يحكم الآلهة نفسها⁽⁶⁷⁾.

ان أبرز صفة تتصف بها الديانة في بلاد وادي الرافدين هي صفة (الحيوية) التي تقول بوجود قوى خفية وحية تتلبس مختلف الظواهر الطبيعية والكونية كالأمطار والرياح ((وبمرور الزمن جسدت هذه القوى بشكل آلهة لها صفات وخصائص مميزة وواجبات معينة، فصار السماء إلهاً سموه (انو) والشمس إلهاً سموه (شمش) وهكذا الأمر

بالنسبة للقمر للإله سين⁽⁶⁸⁾، ولهذا السبب أيضا نشأت بعض الحكايات التفسيرية التي يمكن أن تصنف في توجهات بعضها ضمن القصص الدينية.

ومن الطبيعي أن يمنح نظام قائم على مثل هذه الأسس والتوجهات الكهنة ورجال الدين سلطات واسعة وامتيازات كبيرة بؤتهم المرتبة الثانية في سلم الهرم الاجتماعي والسياسي بعد الملوك ، وكان منصب الكاهن الأعظم في مقدمة كهنة المعبد يوازيه في الأهمية منصب الكاهنة العظمى الذي غالبا ما كان الملوك يكرسون بناتهم لمثل هذا المنصب تدعيما لسلطتهم السياسية ، ويضم المعبد في المدن العراقية القديمة عادة أصنافا ودرجات عديدة من الكهنة ، كل منهم يتخصص في عمل معين ووظيفة محددة: كالإشراف على تقديم القرابين أو قراءة التراتيل الخاصة بالمناسبات المختلفة وقراءة الطالع وغيرها . ومن الطبيعي أن تتقاطع مصالح هؤلاء ورغبات العامة من الناس الأمر الذي كان يؤلب ضدهم -أحيانا- أولئك الأشخاص أو الفئات ممن تتعارض مصالحهم ومصصلحة المعبد ، أو أولئك الذين يحسون بوطأة الاستغلال والدجل الذي يلجأ إليه بعض الكهنة في تعاملهم مع رواد المعبد ، وقد يتخذ ذلك الموقف صورة السخرية كالذي تمثله هذه القصة التي تعد من القصص الشهيرة في أدب العراق القديم :

((أبصر أحد الكهنة أسدا في البادية وهو في طريق عودته الى المدينة

فملكه الرعب والهلع ، فلما نجا من الأسد وبلغ المدينة رأى عند

بابها تمثال أسد رابض، فهجم عليه ولطمه قائلا :

- ماذا كان يفعل أخوك في البادية))⁽⁶⁹⁾

ويبدو من سياق القصة أن الكاهن هذا الذي كان يدعي القيام بالأعاجيب ، وكان يمثل سلطة وجبروتا روحيا لا يقاوم ظل عاجزا عن التفكير بطريقة تخفي رعبه وهلعهم مواجهة هذا الأسد ، وعندما أتحت له الفرصة لينجو ، يلجأ الى الإيهام وسيلة لتبرير خوفه وحفظ ماء وجهه ، وبالإمكان إحلال أية شخصية أخرى محل الكاهن في بنية النص ، فالموقف

إنساني لا يقتصر على فئة من الناس دون أخرى ولكن توظيف شخصية الكاهن كانت له مرامي وأهداف لا تخفى ، والسخرية في هذا الموقف ليست سخرية من الوضع الديني للكهنة وحدهم بل هي سخرية أيضا من السلطة السياسية التي كان يمثلها الكهنة ورجال الدين آنذاك ، ومن سياستهم القائمة على الاضطهاد وتكميم الأفواه الأمر الذي يولد نوعا من المعارضة المستترة كانت القصة واحدة من أساليبها ومظاهرها .

ويشكل الصراع الدولي الذي كان مستشرياً بين المدن والدويلات ملمحا آخر من ملامح الواقع السياسي في حضارات العراق القديم ، فقد كانت الحروب والمعارك غالبا ما تنشب بين الدول والمدن المتجاورة طمعا في السيطرة على الأرض والمياه والثروات، والأمثلة على ذلك كثيرة⁽⁷⁰⁾ الأمر الذي كان أحد أسباب خراب بلاد سومر كما يذهب الى ذلك (كريم)، فقد كانت المدن ترفض التخلي عن استقلالها بكل عناد إزاء نزعات السيطرة والاستحواذ متمثلة في تلك الغزوات التي شنّها بعض الملوك الأقوياء مثل الملك السومري (لوكال زاكيزي) حاكم مدينة (اوما) الذي تمكن من السيطرة على بعض المدن الرئيسية في المنطقة وإدارتها إدارة مركزية، أو محاولات التوحيد التي قام بها (سرجون الأكدي) في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، التي أفضت الى تأسيس أول إمبراطورية عرفها العراق القديم، وكذلك محاولات الاشوريين في الفترات المتأخرة.

إن مثل هذا الواقع السياسي والعسكري ومراوحة هذه المدن بين القمع والحرية، والاستقلال وواقع العبودية والاحتلال وما يتبع ذلك من استعدادات للغزو أو المقاومة أمور لا بد أن تترك فعلها في نفوس أبناء تلك المدن وتجعلهم في حالة استنفار وتأهب لإحساسهم بأنهم مهددون بشبح الاحتلال ، وقد قاسى الكثير منهم وطأته وتبعاته ، فكان على المثقفين والحكماء وكل من أوتي موهبة وملكة أن يشحذ الذهن، ويسل القلم للتنبيه الى مخاطر احتلال محتمل أو الحث على مقاومة حالة احتلال قائمة . وتوفر الرمزية التي تتيحها قصص الحيوان مجالا رحبا لاستيعاب نفثات الصدور المكبوتة وتطلعات النفوس

الحائرة ، فضلا عن حيوية أسلوبها الذي يمكنها من الذیوع والانتشار ، وفي واحدة من تلك القصص التي تصور واقع مجتمع يرزح تحت أعباء قوة تستلبه كل شيء دون أن يفعل سوى الانقياد لها ، نقرأ :

((ذهب الذئب الى الحملان :

اعطني حملا واحدا وسأكتفي .

فأجابته الحملان :

- خذ ما شئت فإننا حملانك))⁽⁷¹⁾

والتضاد هنا واضح ما بين القوة الغاشمة (الذئب) والانصياع الأعمى القائم على استلاب الإرادة التي يحاول الاحتلال فرضها على العامة (الحملان) التي لا حول لها ولا قوة سوى الانقياد و الانصياع، لكنه نص ينذر ويحذر ، وهو بالتالي صرخة مكتومة لو قيض لها أن تنطلق سافرة لكانت شعارا مدويا ومباشرا لكل أولئك الخانعين والمستسلمين لقوى التسلط والطغيان، لكنه في خطابه القائم على الرمز والإيحاء يظل أكثر قدرة وتعبيرا عن مثل ذلك الواقع، وللسبب ذاته كتب للنص الخلود الأمر الذي لم يكتب للشعارات المدوية الرنانة.

ولأن مقاومة الاحتلال تتطلب استعدادات من نوع خاص وعيونا يقظة فإن القصة اتجهت الى التنبيه الى مخاطر الفوضى والتخبط، ودعت الى ضرورة التحسب واليقظة والانتباه، وبث العيون اليقظة التي يجب أن تراقب كل حركة ونشاط خارج الأسوار:

((إذا أباحت المدينة لكلاّب الصيد أن تظل في داخلها

تحكمت الثعالب فيها))⁽⁷²⁾

ذلك ان كلاّب الصيد يجب أن تظل على الدوام معنية بمطاردة الثعالب وحراسة أسوار المدينة ، فإذا تم لتلك الكلاّب أن تسترخي داخل المدينة فمن سيكون مسؤولا عن مقاتلة الثعالب وطردها بعيدا ؟ .

بقي شيء يمكن أن يقال هنا عن المعارضة السياسية الداخلية ، فمع ان المصادر المسمارية لا تقدم لنا أية معلومات تفصيلية عن حالات تمرد داخلي أو محاولات انقلاب قد تكون تلك العصور قد شهدتها ، إلا أننا يمكن أن نستشف وجود ذلك من بعض الوقائع والنصوص بما يوحي بوجود نوع من المعارضة السياسية لهذا الملك أو ذاك ، مع يقيننا بأنها كانت معارضة فردية لم تتخذ طابع النشاط الجماعي المنظم لأسباب تتعلق بطبيعة المجتمع العراقي القديم ، وما كان يحيط بالملك من مظاهر وهالات قد لا تغري الطامعين في السلطة لأن يعبروا عن تطلعاتهم بشكل سافر .

وفي حوارية فريدة تجري بين عبد وسيده ، يمكن لنا ان نفهم وجود مثل هذه النزعة ، فالسيد لم يجد من يبوح له بأحلامه وتطلعاته سوى عبده المطيع الذي لا يني بيرر لسيدته حسن رأيه وحسن التراجع عنه في أن ، انسياقا مع اضطراب نفسية السيد وتأرجحه بين الرأي ونقيضه :

((السيد - عزمت على أن أقوم بعصيان (ثورة)

العبد - افعل يا سيدي فماذا سيحل بطينتك (جوهرك)

السيد - لا ، لن أقوم بثورة

العبد - لاتفعل ذلك يا سيدي لا تفعل ، فإن من يقوم بالثورة

والعصيان يعذب ويشوه جسمه ويودع في السجن))⁽⁷³⁾

أو كما نفهم من المادة (109) من شريعة حمورابي على وجود شيء من المعارضة والتأمر ، فقد كان نص المادة كما ترجمه الدكتور سامي سعيد الاحمد ينص على إعدام صاحبة حانة الخمر التي لا تخبر عن اجتماع المتأمرين على الدولة في حانتها ولم تلق القبض عليهم⁽⁷⁴⁾ ، كما يشير الدكتور الأحمد بهذا الصدد الى نصوص الفأل⁽⁷⁵⁾ التي تضمنت نبوءات محددة بشأن قتل الملك من قبل وزيره ، وغير ذلك مما يوحي بوجود الدسائس والمؤامرات التي لا يخلو منها أي بلاط.

وقد تفهم حكمة (أحيقار) على أنها ذات طابع سياسي رغم مضمونها الأخلاقي ، إذ أنها جاءت نتاجا لدسياسة سياسية كان هدفها الإيقاع به طمعا في منصب الوزير الذي يشغله ، وقد نجح ابن أخته (نادن) في مسعاه ولو الى حين .

إن الصراع السياسي الذي كان مستشرياً بين دول العراق القديم وممالكه اتخذ أشكالاً عديدة، ولأن الأدب هو المعبر الأمين عما تجيش به النفوس، وتنطوي عليه السرائر فإن ما قيض لنا العثور عليه من نصوص قليلة من قصص الحيوان يدل على إسهام تلك القصص في الحياة السياسية بشك بسيط، ومن المؤكد أن نماذج على هذا القدر من النضج والتطور ليست نماذج نهائية، ولعل أعمال الحفر والتنقيب ستكشف لنا المزيد منها لاحقاً.

الهوامش:

- (1) يوسف أمين قصير ، الحكاية والإنسان ، مديرية الثقافة العامة ، بغداد / 1970 ، ص : 5 .
- (2) سنائي على ذكر ذلك في المبحث الخاص بوظيفة القصة .
- (3) فرد ريش فون دير لاين ، الحكاية الخرافية ، ترجمة : نبيلة إبراهيم ، مكتبة النهضة ، بغداد / د.ت ، ص : 76 .
- (4) أنظر ، الكساندر هجرتي كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة : رشدي صالح ، دار الكاتب العربي ، القاهرة / 1976 ص : 114 .
- (5) طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ن دار الحرية للطباعة ، بغداد / 1970 ، ص : 34 .
- (6) فاضل عبد الواحد و آخرون ، حضارة العراق ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد / 1985 ، ج 1 ، ص : 320 .
- (7) المصدر السابق ، ص / 320 وانظر أيضا ، كاظم الجنابي ، مقدمة لدراسة أقدم أدب عرفه الإنسان ، مطبعة التمدن ، بغداد / 1975 ، ص : 29 .
- (8) طه باقر ، م.س ، ص : 33 .
- (9) فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، دار الكتب - جامعة الموصل ، العراق ، 1979 ، ص : 14 . وانظر أيضا ، طه باقر ، ملحمة كلكامش ، وزارة الأعلام ، بغداد ، ط 2 / 1971 ، ص : 29 .
- (10) انظر ، سهير القلماوي ، ألف ليلة وليلة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1959 ، ص / 200 وأحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة ، ط 8 ، ص / 395-394 ، وانظر أيضا ، حامد عبد القادر ، الأدب الحيواني ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1950 ، ص : 15 .
- (11) داود سلوم ، قصص الحيوان في الأدب العربي القديم ، دار الرشيد للنشر ، بغداد / 1979 ، ص : 35 .
- (12) فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، م.س ، ص : 140 .
- (13) م.س ، ص : 139 .
- (14) أنظر ، أنطوان غريغورس بولس ، أحبار الحكيم ، مجمع اللغة السريانية ، بغداد ، د.ت ، ص : 29 .
- (15) فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، م.س ، ص : 141 .
- (16) يراجع في ذلك كتاب داود سلوم ، دراسات في الأدب المقارن التطبيقي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1984 .
- (17) فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، م.س ، ص : 142 .
- (18) طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، ص : 42 .
- (19) صموئيل نوح كريم ، السومريون ، ترجمة الدكتور فيصل الوائلي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، د.ت ، ص : 164 .
- (20) ينظر نص القصة في ، طه باقر ، ملحمة كلكامش ، ص : 49 .
- (21) ينظر نص القصة في ، طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، ص : 182-183 و مجلة سومر المجلد 26 السنة 1970 ص : 89 .
- (22) أنطوان غريغورس بولس ، م.س ، ص : 25 .
- (23) عبد المجيد عابدين ، الأمثال في النثر العربي القديم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1982 ، ص : 149 .
- (24) انظر ، طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، فاضل عبد الواحد (من أدب الهزل والفكاهة عند السومريين) ، مجلة سومر المجلد 26 بغداد 1970 ص 85
- (25) قام بترجمة القصة الدكتور فاضل عبد الواحد ونشرها في مجلة سومر المجلد 26 ، بغداد / 1970 .
- (26) انظر ، طه باقر ، م.س و فاضل عبد الواحد ، من أدب الفكاهة والهزل عند السومريين والبابليين ، مجلة سومر :

1970/26: 85 .

(27) انظر ، عبد الهادي الفؤادي ، دراسة مقارنة لأمثال المجتمع القديم والمعاصر ، مجلة سومر ، بغداد ، المجلدان ، 29 / 1973 و 30 / 1974

(28) فاضل عبد الواحد وآخرون ، حضارة العراق ، ج 1 ، ص / 316 .

(29) للاطلاع على نصوص المناظرات يراجع كتاب صموئيل نوح كريم ، السومريون ، ص / 311-312 .

(30) فاضل عبد الواحد ، م.س. ص : 311 .

(31) داود سلوم ، دراسات في الأدب المقارن التطبيقي ، ص : 189 .

(32) علي عبد الحليم محمود ، القصة في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1975 ، ص : 25 .

(33) الكساندر هجرتي كراب ، م.س. ص : 114 .

(34) م ، س ، ص : 121 .

(35) م.س. ص : 122 .

(36) فرد ريش فون دير لاين ، م.س. ص : 90 .

(37) في أدب الأطفال العالمي المعاصر ثمة محاولات لتقليد نمط الحكايات التفسيرية في قصص تحاول أن تبرر للطفل بعض مظاهر الطبيعة بشكل خيالي ، ولكنه يظل تبريرا مصطنعا يراد منه الخيال لا الحقيقة العلمية وهي معروفة بكونها محاولة لتوظيف الال الناضج لا الخيال الفطري الساذج ، ويمكن الإشارة هنا الى محاولات البريطاني (تد هيويز) الذي ضمن مجموعته (كيف صار الحوت) إحدى عشرة قصة تتحدث عن الأيام التي أعقبت بدء الخليقة ، وثمة نصوص أخرى كثيرة يضيق المجال عن ذكرها هنا .

(38) رغم ان حادثة الطوفان الذي اجتاحت العالم القديم تجد لها ذكرا في أغلب آداب الأمم القديمة إلا أن طه باقر يرجع ان الطوفان وقع في القسم الجنوبي من العراق بداية الألف الثالث قبل الميلاد استنادا الى معطيات التنقيبات الأثرية ، انظر ، طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ص : 398-399 .

(39) علي جواد الطاهر ، مقدمة في النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط 2 / 1983 ، ص : 219 .

(40) صموئيل نوح كريم ، م.س. ص : 6 .

(41) طه باقر ، ملحمة جلجامش ، ص : 86 .

(42) م.س. ص : 89 .

(43) طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، ص : 42 .

(44) يمكن مراجعة الترجمة الكاملة للنص في كتاب سببسر المعنون أساطير بابلية ، ترجمة سلمان التكريتي ، مطبعة النعمان النجف ، 1972 ، ص : 128-129 .

(45) عبد المجيد عابدين ، م.س. ص : 12 .

(46) انظر نص القصة في ، طه باقر ، مقدمة في أدب العرق القديم ، ص : 182-183 .

(47) عبد الهادي الفؤادي ، م.س. مجلد 30 / 1974 ص : 40 .

(48) طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، ص : 182 وفاضل عبد الواحد ، مجلة سومر ، المجلد 26 / 1970 ، ص : 89 .

(49) عبد الهادي الفؤادي ، م.س. المجلد 30 / 1974 ص : 36

(50) أنطوان غريغورس بولس ، م.س. ص : 132 .

(51) طه باقر ، م - س ، ص 182 . 52

(52) انظر ، لامبرت م.س.ص 217 والنص بين المزدوجين مخروم والسياق يقتضي الذي أثبتناه

- (53) طه باقر ، م ، س ص : 181 و فاضل عبد الواحد ، مجلة سومر ، المجلد 26 / 1970 ص 89 .
- (54) م ، س ص : 181 .
- (55) أنطوان غريغورس بولس ، م ، س ص 103 .
- (56) م ، س ص : 104 .
- (57) م ، س ص : 104 .
- (58) م ، س ص : 104 .
- (59) م ، س ص : 133 .
- (60) م ، س ص : 132 .
- (61) م ، س ص : 132 .
- (62) م ، س ص : 132 .
- (63) م ، س ص : 133 .
- (64) م ، س ص : 55 .
- (65) سامي سعيد الاحمد واخرون ، حضارة العراق ، ج / 2 ص : 11 .
- (66) وفي الأمثال السومرية ما يؤكد ذلك فيقول أحد الأمثلة ((الرجل ظل الإله والعبد ظل الإله ولكن الملك صورة الإله))
- أنظر ، طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ص : 159 .
- (67) فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، م ، س ص : 49 .
- (68) م ، س ص : 108 .
- (69) أنظر نص القصة في : طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ص 182 و داود سلوم ، قصص الحيوان في الأدب العربي القديم ص 15 .
- (70) للاستزادة يراجع ، عامر سليمان ، حضارة العراق ، ج / 2 ص 110-111 .
- (71) أنطوان غريغورس بولس ، م ، س ص 104 .
- (72) طه باقر ، م ، س ص ك 158 .
- (73) م ، س ص : 155 .
- (74) أنظر ، سامي سعيد الاحمد ، حضارة العراق ، ج / 2 ص 24 ، وفي ترجمته لمنطوق المادة نفسها يستبدل الدكتور فوزي رشيد كلمة (المحتالين) ب (بالمتأمرين) ، أنظر ، فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، دار الشؤون الثقافية بغداد ، ط / 2 ، 1987 ص 136 .
- (75) سامي سعيد الأحمد ، م ، س ص 24/2 .

المراجع:

الكتب :

- (1) الكساندر هجرتي كراب ، علم الفولكلور ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، 1958 .
- (2) أنطوان غريغورس بولس ، أحيقار الحكيم ، مجمع اللغة السريانية ، بغداد ، 1976 .
- (3) داود سلوم ، دراسات في الأدب المقارن التطبيقي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1979 .
- (4) داود سلوم ، قصص الحيوان في الأدب العربي القديم ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1984 .
- (5) سامي سعيد الاحمد ، وآخرون ، حضارة العراق ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1985 .
- (6) سهير القلماوي ، ألف ليلة وليلة ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1959 .
- (7) صموئيل نوح كريم ، السومريون ، ترجمة فيصل الوائلي ، وكالة المطبوعات ، الكويت - دت .
- (8) طه باقر ، مقدمة في أدب العراق القديم ، دار الحرية للطباعة ، بغداد 1976 .
- (9) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، مطبعة العاني ، بغداد 1951 . 10
- (10) طه باقر ، ملحمة جلجامش ، وزارة الإعلام ، بغداد ط/2 ، 1971 .
- (11) عبد المجيد عابدين ، الأمثال في النثر العربي القديم ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1988 .
- (12) علي جواد الطاهر ، مقدمة في النقد الأدبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط / 2 ، 1983 .
- (13) علي عبد الحليم محمود ، القصة العربية في العصر الجاهلي ، دار المعارف بمصر ، القاهرة 1975 .
- (14) فاضل عبد الواحد ، وآخرون ، حضارة العراق ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، ج 2 : 1985 .
- (15) فاضل عبد الواحد وعامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، دار الكتب جامعة الموصل 1979 .
- (16) فرد ريش فون دير لاین ، الحكاية الخرافية ، ترجمة نبيلة إبراهيم ، مكتبة النهضة ، بغداد ، دت .
- (17) فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط/2 بغداد 1979 .
- (18) كاظم الجنابي ، مقدمة لدراسة أقدم أدب عرفه الإنسان ، مطبعة التمدن ، بغداد 1957 .
- (19) يوسف أمين قصير ، الحكاية والإنسان ، مديرية الثقافة العامة ، بغداد 1970 .
- (20) بي ، أي ، سبيسر ، أساطير بابلية ، ترجمة سلمان التكريتي ، مطبعة النعمان ، النجف 1972 .

الدوريات :

- (1) فاضل عبد الواحد ، من أدب الفكاكة والهزل عند السومريين والبابليين ، مجلة سومر ، بغداد ، المجلد 26 السنة 1970
- (2) عبد الهادي الفؤادي ، دراسة مقارنة لأمثال المجتمع العراقي القديم والمعاصر ، مجلة سومر المجلد 29 السنة 1973 والمجلد 30 السنة 1974 .

المصادر الأجنبية :

- (1) W. G. Lambert. Babylon Wisdom Literature. Oxford. 1960.